الفصل الرابع عشر

سويسرة وفولتير ١٧١٥ — ٥٨

١ — فيللا المباهج (ليدليس) :

على طريق لبون ، خارج أبواب جنيف مباشرة ولكن فى حدودها الإدارية ، وجد فولتير فى خاتمة المطاف مكاناً يستطيع أن يرقد فيه آمناً مطمئناً ، هو فيللا فسيحة تسمى سان — جان ، ذات حدائق مدرجة تهبط إلى نهر الرون . ولما كانت قوانين الجمهورية تحرم بيع الأرض إلا للبروتستنت السويسريين ، فقد قدم ٨٧,٠٠٠ فرنك لشراء الملك (فبراير ١٧٥٥) بواسطة وكالة لابا دجرانكور وجان روبير ترونشان(*). وبكل حماسة أهل المدن اشترى دجاجات وبقرة ، وزرع حديقة خضر ، وغرس الأشجار. لقد أنفق من عمره ستين عاماً حتى تعلم أننا « يجب أن نزرع حديقتنا » . وخطر له أن فى وسعه الآن أن ينسى فردريك ، ولويس الخامس عشر ، وبرلمان باريس ، والأساقفة ، واليسوعيين ، ولم يبق إلا مغصه ونوبات صداعه . وبلغ ابتهاجه ببيته الجديد مبلغاً جعله يسميه « ليدليس » أى المباهج وكتب إلى تيريو يقول : « إن بى من السعادة ما يخجلنى » . (١) ولما كانت استثماراته الذكية تأتيه بدخل مترف ، فإنه أشبع رغبته فى العيش المترف . فاحتفظ بستة جياد وأربع مركبات ، وسائق ، وجوذى يمتطى أحد جياد العربة ، وتابعين ، وخادم خاص ، وطاه فرنسى ، وسكرتير ، ونسناس — كان يجب أن يقارن بينه وبين الإنسان . وتربعت على عرش هذه المؤسسة مدام دنيس ، التى وصفتها مدام دينيه حين زارت البيت فى ١٧٥٧ بهذه العبارات :

(*) كان هناك أفراد كثيرون باسم ترونشان ، أهمهم : (١) جان روبير ، المصرفى والمدير العام لجنيف ، (٢) باكوب ، عضو المجلس ، (٣) فرنسوا ، المؤلف والمصور (٤) تيودور ، الطبيب . و « ترونشان » هنا يقصد به تيودور ، مالم ينص على غير هذا .

ما زال البيت موجودا (١٩٦٥) ، وقد نقصت مساحته كثيرا ، ولكن مدينة جنيف تحتفظ به معهدا ومتحفا لفولتير .

« امرأة قصيرة سمينة ، مدورة كالكرة ، تناهز الخمسين ، ... قبيحة ، طيبة ، كذابة دون قصد ودون خبث ، ليس فيها ذكاء ومع ذلك تبدو وكأن لها نصيباً منه ... تكتب الشعر وتناقش فى منطق وفى غير منطق ... دون كثير ادعاء أو غرور ، وأهم من ذلك كله دون أن تسىء إلى أحد .. تعبد خالها ، بوصفه خالا وبوصفه إنساناً ، وفولتير يحبها ، ويضحك عليها ، ويعبدها . إن هذا البيت ، باختصار ، مأوى يجمع بين النقائض ، ومشهد بمتع المتفرجين[٢] .

ووصف زائر آخر هو الشاعر الصاعد مارمونتيل ، المالك الجديد فقال « كان فى فراشه حين وصلنا . فمد ذراعيه وعانقنى وبكى فرحاً ... ثم قال « هأنت تجدنى مشرفاً على الموت . فتعال وردنى إلى الحياة . أو تلق آخر أنفاسى » ... وبعد لحظة قال « سأنهض وأتناول الغداء معك . » [٣] .

وكان فى فيللا المباهج هذه عيب واحد — وهو برودتها فى الشتاء ، وفولتير يحتاج إلى الحرارة لشدة هزاله . وعليه فقد وجد قرب لوزان خلوة صغيرة تدعى مونريون يقيها موقعها من ريح الشمال ، فاشتراها ، وأنفق فيها بعض شهور الشتاء خلال ١٧٥٥ — ٥٧ . وفى لوزان ذاتها اشترى (يونيو ١٧٥٧) على نهر جران شين « بيتاً لو كان فى إيطاليا لسمى قصراً » له خمس عشرة نافذة تطل على البحيرة . « هناك ودون أى معارضة من رجال الدين أخرج تمثليات أكثرها من تأليفه . وكتب يقول « إن الهدوء شىء جميل . ولكن الملل ينتمى إلى نفس الأسرة . ولكى أرد عنى هذا القريب القبيح أقمت مسرحاً » [٤] .

وهكذا ، فى غدوة ورواحه ، بين جنيف ولوزان عرف سويسرة .

٢ — المقاطعات السويسرية (الكانتونات) :

فى ١٧٤٢ تساءل صموئيل جونسن « بأى سياسة عجيبة ، أو بأى توافق سعيد بين المصالح ، أمكن تجنب الفتن العنيفة فى دولة تتألف من شتى

---

(١) هو الآن (١٩٦٥) متحف للفن ، يضم مخلفات صغيرة لفولتير .

المجتمعات ومختلف الأديان ، رغم أن فى أهلها من الولع بالحرب ما يجعل من تقرير تجريد جيش ومن حشده شيئاً واحداً ؟ (٥) .

هذا المركب الغريب من ثلاثة شعوب ، وأربع لغات ، ومذهبين ، ظل فى سلام مع العالم الخارجى منذ ١٥١٥ . فبمقتضى ضرب من الميثاق المبرم بين اللصوص أمسكت الدول عن مهاجمته ، ولقد كان مطمعاً غاية فى الصغر (بلغ ٢٢٧ ميلا فى أقصى طوله ، و ١٣٧ فى أقصى عرضه) فقيراً جداً فى موارده الطبيعية ، شديد الوعورة فى أرضه ، اتصف أهله بشجاعة تثبط همة المعتدى . واستمر السويسريون ينجبون خيرة الجنود فى أوربا ، ولكن الاحتفاظ بهم كان غالى الكلفة ، لذلك كانوا يؤجرون لشتى الحكومات بسعر معلوم للجندى . وفى ١٧٤٨ كان هناك ستون ألفاً من هؤلاء الجنود « الجوالين » فى خدمة الدول الأجنبية . وقد أصبحوا فى بعضها جزءاً دائماً من المؤسسة العسكرية ؛ وكانوا أحب الحرس للبابوات والملوك الفرنسيين وأحوزهم لثقتهم ؛ والعالم كله يعرف كيف قضى الحرس السويسرى لآخر رجل منهم دفاعاً عن لويس السادس عشر فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ .

وفى ١٧١٥ كانت ثلاث عشرة مقاطعة تؤلف الاتحاد السويسرى : أبنتسيل ، وبازل ، وجلاروز ، وشافهاوزن ، وزيورخ — وكانت فى أغلبها ألمانية وبروتستنتية ؛ ثم لوسرن ، وشفيتس ، وزولوتورن ، وأونترفالدن ، وأورى ، وبتسوج — وكلها ألمانية وكاثوليكية ، ثم برن ، وكانت ألمانية وفرنسية ، بروتستنتيةوكاثوليكية ؛ ثم فريبورج ، وكانتفرنسية وكاثوليكيو. وفى ١٨٠٣ ضم الاتحاد إليه مقاطعات أراجاو ، وسانت جالين ، وتورجاو (ألمانية وبروتستنتية) ، وتيتشينو (إيطالية وكاثوليكية) ، وڤو (فرنسية وبروتستنتية) . وفى ١٨١٥ أضيفت ثلاث مقاطعات جديدة هى جنيف (فرنسية وبروتستنتية تنقلب الآن كاثوليكية بسرعة) ، وڤاليه (فرنسية ، وألمانية ، وكاثوليكية) والإقليم المعروف للفرنسيين باسم جريزون وللألمان باسم جراوبوندن تغلب عليه البروتستنتية ، ويتكلم الألمانية أو الرومانش ، وهى لاتينية أثرية .

وكانت سويسرة جمهورية النظام ، ولكنها لم تكن ديمقراطية بمعناها المعروف ، فى كل مقاطعة تنتخب أقلية من السكان الذكور البالغين ، الذين ينتمون عادة للأسر العريقة ، مجلساً كبيراً أو « مجلساً عاماً » يتألف من نحو مائتى عضو ، ومجلساً صغيراً يتألف من أربعة وعشرين إلى أربعة وستين عضواً . وكان المجلس الصغير يعين مجلساً خاصاً أصغر منه وعمدة وهو أكبر موظفى المقاطعة . ولم يكن هناك فصل للسلطات ، فالمجلس الصغير هو أيضاً المحكمة العليا . وقصرت المقاطعات الريفية (وهى أورى ، وشفيتس ، وأونتفالدن ، وجلاروز ، وتسوج وأبنتسيل) حق الانتخاب على الأسر الوطنية ، أما غيرها من المقيمين بها ، مهما طال مقامهم ، فيحكمون بوصفهم طبقة تابعة . (٦) ومثل هذه الأوليجركيات كانت شائعة فى سويسرة . فلوسرن مثلا قصرت صلاحية التعيين فى الوظائف الحكومية على تسع وعشرين أسرة ، ولم تسمح لأسرة جديدة بدخول هذه الدائرة إلا إذا انقرضت إحدى الأسر القديمة . (٧) وفى برن كانت ٢٤٣ أسرة صالحة للتعيين فى الوظائف ، ولكن نحو ثمان وستين منها فقط هى التى تقلدت المناصب بصفة دائمة . وفى ١٧٨٩ لاحظ المؤرخ الروسى نيكولاى كارامزين أن مواطنى زيورخ « يفخرون بلقبهم فخر ملك بتاجه » لأن « أحداً من الأجانب لم يحصل على حق المواطنة منذ نيف و ١٥٠ سنة . » (٨) (وعلينا أن نذكر أنفسنا بأن كل الديمقراطيات تقريباً أو الأوليجركيات ، لأن الأقليات يمكن تنظيمها للحركة والسلطة ، أما الأغلبيات فلا) .

وكان فى حكومة المقاطعة نزوع إلى النظام الأبوى الذى يتطلب الطاعة لأولى الأمر . مثال ذلك أن المجالس فى زيورخ أصدرت القوانين المنظمة للأكل ، والشرب ، والتدخين . وقيادة العربات ، وحفلات الزفاف ، واللباس ، والتزين ، وقص الشعر ، وأجور العمل ، ونوعية المنتجات ، وأسعار الضروريات ، وكانت هذه الأوامر من مخلفات القوانين البيئية أو النقابية القديمة ، والواقع أن « معلمى » النقابات الحرفية الاثنى عشرة فى زيورخ كانوا يكتسبون عضوية المجلس الصغير تلقائياً ، بمعنى أن هذه المقاطعة كانت إلى حد كبير دولة نقابية . وقد كتب جوته فى أخريات القرن

أن شواطىء بحيرة زيورخ تعطى « فكرة جذابة مثالية عن أروع وأسمى حضارة » . (٩)

أما « مدينة وجمهورية » برن فكانت أكبر وأقوى المقاطعات . فهى تضم ثلث سويسرة ، وتتمتع بأغنى اقتصاد ، وحكومتها محط الإعجاب عموماً لما تتمز به من تدبر وكفاية ؛ وقد شبهها مونتسكيو بروما فى أزهى عصور الجمهورية . أما وليم كوكس ، وهو قسيس بريطانى ومؤرخ عالم ، فقد وصف المدينة كما رآها فى ١٦ سبتمبر ١٧٧٩ بهذه العبارات :

حين دخلت برن أدهشنى ما تميزت به من نظافة وجمال . شوارعها الرئيسية عريضة طويلة ، ليست مستقيمة ، بل منعطفة انعطافاً هينا ، وتكاد بيوتها تكون متماثلة ، وهى مبنية بحجر تغلب عليه الشهبة ومن تحتها البواكى . ويجرى وسط الشوارع نهير نشيط ، ماؤه شديد الصفاء ، فى مجرى صخرى ، وهناك نافورات عديدة تضفى على المدينة جمالا يعدل نفعها لأهلها . ويكاد نهر آر يحيط بالمدينة ، إذ يلتف مجراه فوق قاع صخرى أوطا كثيراً من مستوى الشوارع .. والريف المجاور غنى بالزرع ، فيه تنويع لطيف من تلال ومروج وغابات ومياه .. وترسم على الأفق البعيد سلسلة شديدة الانحدار من جبال الألب الوعرة المكللة بالثلوج . (١٠) » .

أما الخطأ الفادح الذى ارتكبه نبلاء برن فى معاملتهم لمقاطعة فو . فهذا الفردوس الأرضى كان يمتد بحذاء الضفة السويسرية لبحيرة جنيف من أرباض مدينة جنيف حتى لوزان (العاصمة) ويصل شمالا إلى بحيرة نيوشاتل . على هذه الضفاف الجميلة والتلال الزاخرة بالكروم استمتع فولتير وجيبون بحياة غاية فى التحضر ، وشب روسو وتعذب ، واختار بيت جولى الفاضل (فى كلارنس ، قرب فيڤى) . وقد خضع الإقليم لسيادة برن فى ١٥٣٦ ، ففقد مواطنوه حقهم فى تقلد المناصب الحكومية ، واشتد تبرمهم بالحكم البعيد عنهم ، وتكررت ثوراتهم دون جدوى .

وكانت المقاطعات شديدة الحرص على استقلالها الذاتى . كل منها تعتبر نفسها دولة ذات سيادة ، لها الحرية فى خوض الحرب أو إبرام الصلح

أو الدخول فى أحلاف أجنبية ، مثال ذلك أن المقاطعات الكاثوليكية ارتبطت بفرنسا طوال حكم لويس الخامس عشر . ورغبة فى التخفيف من الصراع بين المقاطعات كانت كل منها ترسل مندوبين عنها إلى مجلس سويسرى (ديت) ينعقد فى زيورخ . ولكن هذا المجلس الاتحادى (الكونجرس) كانت سلطاته محدودة جداً ، فهو لا يستطيع فرض قراراته على أى مقاطعة ترفضها . ويجب أن توافق جميع المقاطعات على هذه القرارات لكى تكون قانونية . وكانت حرية التجارة مقبولة من حيث المبدأ ، ولكن حروب المكوس بين المقاطعات انتهكت هذا المبدأ . ولم تكن هناك عملة مشتركة ، ولا إدارة مشتركة للطرق التى تربط المقاطعات .

على أن الحياة الاقتصادية زكت رغم العوائق الطبيعية والحواجز التشريعية. وكان رق الأرض قد زال فى بضع مناطق على الحدود الألمانية أو النمساوية ، فملك الفلاحون كلهم تقريباً الأرض التى يزرعونها . وكان الفلاحون فقراء فى « مقاطعات الغابات » (وهى أورى ، وشفايتس ، وأونترفالدن ، ولوسرن) وذلك لظروف جغرافية ؛ أما حول زيورخ فازدهرت أحوالهم ، وفى برن جمع العديد من الفلاحين ثروات بالفلاحة التى اتسمت بالعناية والمثابرة . وقد اضطر كثير من السويسريين إلى الجمع بين الزراعة والصناعة لطول الشتاء وصعوبة النقل ؛ فالأسرة التى تغزل القطن أو تصنع الساعات تزرع الحدائق أو تغرس الكروم . واشتهرت فريبورج بجبنها الجروبير (جرافيرا) ، وزيورخ بدنتللتها ، وسانت جالين بقطنها ، وجنيف بالساعات ، ونيوشاتل بالدنتيللا ، وسويسرة كلها بالأنبذة . وكانت المالية السويسرية حتى فى ذلك الحين مثار حسد أوربا ، والتجار السويسريون نشيطين فى كل بلد . وأثرت بازل من الاتجار مع فرنسا وألمانيا ، وزيورخ من الاتجار مع ألمانيا والنمسا . ونافست بازل وجنيف ولوزان ، أمستردام ولاهاى مراكز للنشر . وبعد أن أشاد هاللير وروسو بجمال البحيرات السويسرية المتألق وجلال الألب السويسرية المهيب ، أمدت السياحة الاقتصاد الاتحادى بدعم متزايد .

أما مستوى الأخلاق فلعلة كان فى سويسرة أرقى منه فى أى بلد آخر باستثناء اسكندناوة ، حيث أنتجت الظروف المماثلة نتائج مماثلة . فكانت أسرة الفلاح مثالا للجد ، والعفة ، والوحدة ، والتدبير . وكان فى المدن بعض الفساد فى السياسة وبيع المناصب ، ولكن حتى فى هذه الأماكن أعانت الخشونة التى ولدها المناخ القاسى ، والإقليم الجبلى ، والآداب البروتستنتية ، على الاستقرار الخلقى . وكان اللباس محتشما سواء عند الأغنياء أو الفقراء . وظلت قوانين الإنفاق صارمة مرعية الجانب فى سويسرة (١١) .

أما الدين فكان نصف الحكم ونصف الصراع . فالحضور إلى الكنيسة إجبارى ، والمدن من الصغر بحيث يستحيل على الخوارج المتمردين أن يجدوا ملاذاً لهم فى زحمة الجماهير . ويوم الأحد يوم تعبد لاهوادة فيه ، ويروى إن الحانات فى زيورخ كانت تهتز بالمزامير ترتل فيها فى يوم الرب (١٢) . ولكن المذهبين المتنافسين — الكلفنى والكاثوليكى — ضربا أسوأ أمثلة السلوك ، لأنهما أطلقا العنان للحقد والكراهية وقيدا العقل بالأغلال . وحظرت بعض المقاطعات الكاثوليكية كل عبارة إلا الكاثوليكية ، وبعض المقاطعات البروتستنتية كل عبادة إلا البروستنتية . (١٣) وحرم القانون الخروج على الكنيسة الرسمية وتأليف مذاهب مستقلة . وفى لوسرن عذب ياكوب شمدلن فى ١٧٤٧ ثم شنق لمحاولته تنظيم حركة « تقوية » مستقلة عن الكنيسة . وكان حلف يمين الالتزام بالكلفنية شرطاً لشغل المناصب السياسية أو الكنسية أو التعليمية فى المقاطعات البروتستنتية . (١٤) وفرضت الكنيسة والدولة رقابة شديدة على المطبوعات . وفى مقاطعات الغابات تضافر فقر الفلاحين ، والعواصف ، وانزلاقات الأرض ، وانهيارات الثلوج ، وآفات الزرع ، والفيضانات ، والرهبة من الجبال المحيطة بالسكان — كلها اجتمعت لتولد فيهم خوفاً خرافياً من الأرواح الشريرة الساكنة فى القمم المحملقة والرياح المدومة . ولكى يقهر الفلاحون المكروبون أعداءهم الخارقين للطبيعة كانوا يتوسلون إلى قساوستهم أن يخرجوا الأرواح النجسة ويمنحوا قطعانهم البركة فى مراسم دينية . وقد انتهى حرق المتهمين بالسحر فى جنيف عام ١٦٥٢ .

وفى برن عام ١٦٨٠ ، وفى زيورخ عام ١٧٠١ ، وفى المقاطعات الكاثوليكية عام ١٧٥٢ ، ولكن امرأة فى جلاروز قطع رأسها عام ١٧٨٢ وكانت تهمتها أنها سحرت طفلا . (١٥)

وانبثق النور وسط هذه الظلمة بفضل المدارس الحكومية والمكتبات العامة . وكانت جامعة بازل تعانى اضمحلالا من جراء التعصب الدينى ، فلم تكد تقدر منجزات يوهان وياكوب ودانيل برنوللى ، وأكرهت ليونارد أويلر على الهروب إلى قاعات أكثر سماحة لضيوفها . ولكن سويسرة رغم هذا أنجبت الأدباء والشعراء والعلماء فى تناسب كامل مع عدد سكانها ؛ وقد ذكرنا من قبل العالمين الزيورخيين يوهان ياكوب بودمير ويوهان ياكوب برايتنجر ، وقد كان لهما أثر دائم على الأدب الألمانى لأنهما عارضا إعجاب جوتشيد المفرط ببوالو والأشكال الكلاسيكية ؛ ودافعا عن حقوق الوجدان ، والعناصر الغيبية ، بل اللامعقولة ، فى الأدب والحياة ؛ وأشادا بالشعر الإنجليزى وفضلاه على الفرنسى ، وقدما شيكسبير وملتن لقراء الألمانية ، وبعثا الأغانى القديمة (١٧٥١) وشعراء العصر الوسيط الغنائيين الألمان minnesingers وانتقل مذهبهم إلى ليسنج ، وكلوبشتوك ، وشيلر ، والشاب جوته ، وفتح الطريق للحركة الرومانسية فى ألمانيا ولإحياء الاهتمام بالعصور الوسطى . وسار على هذا الدرب شاعر زيورخى يدعى سالومون جسنر ، وأصدر قصائد « رعوية » (١٧٥٦) فيها من فتنة الريف ما جعل أوربا بأسرها تترجمها ، وشعراء مثل فيلاند وجوته يحجون إلى بيته .

وأنبه سويسرى القرن الثامن عشر ذكراً بعد جان جاك روسو هو البريشت فون هاللر البرنى ، أعظم الشعراء والعلماء فى بلده وعصره . درس فى برن ، وتوبنجن ، وليدن ، ولندن ، وباريس ، وبازل ، القانون والطب والفسيولجيا والنبات والرياضة . فلما عاد إلى برن اكتشف جبال الألب . وأحس بجمالها وجلال خطوطها ، فتدفق شعراً . وأصدر وهو بعد فى الحادية والعشرين (١٧٢٩) مجلداً من الشعر الغنائى سماه « الألب » ذهب كوكس المتحمس له إلى أنه شامخ خالد كالجبال التى يتغنى بها . (١٦) وكان الكتاب

سبقاً لروسو فى كل شىء تقريباً . دعا العالم للاعجاب بجبال الألب لما فيها من علو شاهق ملهم وشهادة بعظمة الله ؛ وأزرى بالمدن لأنها أوكار للترف والكفر تقضى إلى انحلال الجسم والخلق ، وأشاد بالفلاحين وأهل الجبال لصلابة عودهم ومتانة أيمانهم واعتدال عاداتهم . وأهاب بالرجال والنساء والأطفال أن يتركوا المدن ويخرجوا ليعيشوا فى الخلاء عيشة أبسط وأعقل وأصح .

ولكن علم هاللر هو الذى أذاع شهرته فى أوربا . فنى ١٧٣٦ عرض علية جورج الثانى أستاذية النبات والطب والجراحة فى جامعة جوتنجن . وهناك ظل يدرس سبعة عشر عاماً ، بكفاية حملت أكسفورد وهاللى على دعوته ، وأراده فردريك الأكبر أن يخلف موبرتوى عميداً لأكاديمية برلين ، وحاولت كاترين الثانية إغراءه بالذهاب إلى سانت بطرسبورج وأرادت جوتنجن أن تعينه عميداً لها . ولكنه بدلا من هذا كله قفل إلى برن واشتغل طبيباً ، واقتصادياً ، ورئيساً لمقاطعته ، وعكف فى مثابرة وجد على رائعة من روائع القرن العلمية هو كتابه « الأصول الفسيولوجية لجسم الإنسان » الذى سنلتقى به ثانية فى مكان لاحق .

وظل طوال هذه السنين . وطوال اشتغاله بهذه العلوم ، محتفظاً بنقاء صادق فى عقيدته الدينية ونزاهة صارمة فى أخلاقه . فلما قدم فولتير ليعيش فى سويسره خيل لهاللر أن الشيطان رفع رايته فوق جنيف ولوزان . وقد زار كازانوفا كلا من هاللر وفولتير فى ١٧٦٠ ، وكان ينافس هاللر فى تذوقه للجمال . فلنستمتع مرة أخرى برواية كازانوفا لمغامرته المزدوجة :

كان هاللر رجلا كبير الجسم والعقل ، طوله ستة أقدام ، عريضاً فى أبعاده — فهو عملاق فى الجسم والعقل . وقد هش للقائى كثيراً ، وفتح لى عقله ، وأجاب عن كل أسئلتى فى دقة وتواضع ... فلما أخبرته أننى أتطلع إلى لقاء المسيو فولتير ، قال إننى محق تماماً فى تطلعى هذا ، وأضاف دون مرارة « أن المسيو فولتير رجل يستحق أن يعرفه المرء ؛ رغم أن كثيراً من الناس وجدوه أعظم عن بعد ، وهذا يناقض قوانين الفيزياء . »

وبعد بضعة أيام زار كازانوفا فولتير فى فيلته المباهج » : قلت له : مسيو فولتير ، هذا اليوم مفخرة حياتى الكبرى . لقد كنت تلميذك طوال عشرين عاماً ، وإن قلبى ليطرب لرؤية معلمى .

وسألنى من أين جئت .

قلت « من روش . إننى لم أرد أن أبرح سويسرة دون أن أرى هاللر .. ولقد احتفظت بك كأنك النقل أختم به طعامى . »

« هل سررت من هاللر ؟ » .

« لقد أنفقت معه ثلاثة من أسعد أيام حياتى . »

« إنى أهنئك »

« يسرنى أنك تنصفه . ويؤسفنى أنه لا ينصفك إنصافك إياه » . »

« أها ! ربما كان كلانا مخطئاً . » (١٧)

وفى ١٧٧٥ ، نشر هاللر آخر كتبه وكأنه يذيع على العالم كلمته الأخيرة ، واسم الكتاب « رسائل تتناول عدة محاولات أخيرة للفكر الحر .. ضد الوحى » ، وهو محاولة جادة لمعارضة كتاب فولتير « أسئلة فى الموسوعة . » وكتب رسالة مؤثرة للزنديق الرهيب . دعاه (وهو فى الحادية والثمانين) إلى أن يستعيد « تلك السكينة التى تهرب حين تدنو العبقرية » ، ولكنها تقبل على الإيمان الواثق ؛ « عندها سيكون أشهر رجل فى أوربا أسعدهم كذلك » . (١٨) على أن هاللر نفسه لم يظفر بهذه السكينة قط . فقد كان برما فى المرض لفرط إحساسه بالألم « كان فى سنواته الأخيرة يدمن تعاطى الأفيون الذى لم يكن له من أثر إلا زيادة ضجره الفطرى لأنه لم يكن سوى ملطف وقتى لألمه » . (١٩) وكان يعانى من خوف الجحيم ، ويلوم نفسه على فرط ما بذل « لنباتاتى وغيرها من الحماقات . » (٢٠) وقد أدرك السكينة فى ١٢ ديسمبر ١٧٧٧ .

٣ — جنيف :

لم تكن جنيف فى هذا القرن مقاطعة داخلة فى الاتحاد ، بل جمهورية قائمة بذاتها — المدينة وما وراء البحيرة — تتكلم الفرنسية وتدين بالمذهب

الكلفنى . وقد وصفها دالامبير فى مقاله عنها فى « الموسوعة » وصف معجب بها كما رآها فى ١٧٥٦ :

من العجيب أن مدينة لا يزيد سكانها على ٢٤,٠٠٠ نسمة وتشمل رقعتها أقل من ثلاثين قرية ، قد حافظت على استقلالها ، وهى من أكثر المجتمعات ازدهاراً فى أوربا . وهى فى غناها بحريتها وتجارتها ترى كل ما حولها يشتعل دون أن يمسها من ذلك أذى . فالأزمات التى تضطرب بها أوربا ليست بالنسبة لها غير مشهد تتفرج عليه دون أن تشارك فيه . وهى مع ارتباطها بفرنسا برباط الحرية والتجارة ، وبانجلتره برباط التجارة والمذهب الدينى ، تبدى رأيها بإنصاف فى الحروب التى تخوضها هاتان الأمتان الواحدة ضد الأخرى ، ولكنها أحكم من أن تنحاز لأحداهما . وهى تصدر حكمها على جميع ملوك أوربا دون تملق ، أو إساءة ، أو خشية . (٢١)

وكانت هجرة الهيجونوت من فرنسا نعمة على جنيف ، لأنهم جلبوا إليها مدخراتهم ومهاراتهم ، وجعلوا المدينة عاصمة صناعة الساعات فى العالم بأسره . وقد قدرت مدام دبينيه عدد المشتغلين بتجارة المجوهرات بستة آلاف . (٢٢) فأصبح جاك نكير وزيراً لمالية لويس السادس عشر ، وألبير جالاتان وزيراً لخزانة الولايات المتحدة الأمريكية فى عهد الرئيس جفرسن .

وكان الحكم فى جنيف امتيازاً طبقياً شأنه فى كل المقاطعات . فلا يقبل فى الوظائف العامة غير السكان الذكور الذين ولدوا فى جنيف لآباء وأجداد مواطنين . وتلى طبقة الأشراف هذه طبقة البورجوازية من أرباب الصناعات ، والتجار ، وأصحاب الحوانيت ومعلمى الحرف ، وأعضاء المهن . وكان الأشراف والبورجوازيون ، الذين قل أن جاوز عددهم ألفاً وخمسمائة ، (٢٣) يجتمعون كل سنة فى كتدرائية القديس بطرس لينتخبوا « مجلساً كبيراً » من مائتى عضو « ومجلساً صغيراً » من خمسة وعشرين عضواً . ويختار المجلسان أربعة مأمورين ، كل منهم لعام واحد ، رؤساء تنفيذيين للدولة . وهناك طبقة ثالثة مجردة من حق الانتخاب . هم « المستوطنون » المنحدرون من آباء أجانب ، وطبقة رابعة هم « الأهالى » المولودون فى جنيف لجنيفيين

غير وطنيين . هؤلاء « الأهالى » الذين ألفوا ثلاثة أرباع السكان لم يكن لهم من الحقوق المدنية غير دفع الضرائب ، فهم لا يستطيعون الاشتغال بالأعمال التجارية أو المهن ولا بوظائف الجيش أو برآسة حرفة فى نقابة . ولقد دار التاريخ السياسى لهذه الجمهورية حول صراع البورجوازيين للحصول على حق شغل وظائف الدولة ، وصراع الطبقتين الدينيتين للحصول على حق التصويت . وفى ١٧٣٧ امتشق مواطنو المدينة الحسام ليقاتلوا طبقة الأشراف ، وأكرهوها على قبول دستور جديد يقضى لجميع الناخبين بالحق فى أن ينتخبوا أعضاء فى المجلس الكبير ، ولهذا المجلس حق إصدار القرارات النهائية فى مسائل الحرب والسلم ، والأحلاف والضرائب ، وإن كان التشريع لا يقدم إلا من المجلس الصغير ، أما « الأهالى » فقد سمح لهم بالاشتغال ببعض المهن مع بقائهم محرومين من التصويت . وظلت الحكومة أو ليجاركية ، ولكنها كانت تدار بكفاية ، ومحصنة نسبياً ضد الفساد .

وكان يلى طبقة الأشراف فى النفوذ مجمع القساوسة الكلفينين . فقد نظم هذا المجمع شئون التعليم ، والأخلاق ، والزواج ، ولم يسمح بأى تدخل فى سلطته من السلطة العلمانية . ولم يكن هنا أساقفة ولا رهبان . وقد أشاد الفيلسوف دالامبير بفضائل الاكليروس الجنيفى ووصف المدينة بأنها أشبه بجزيرة من الأدب والعفة ، رآها النقيض للفوضى الخلقية التى فشت بين فرنسيي الطبقة العليا . أما مدام دبينيه فبعد أن مارست العديد من العلاقات الغرامية ، امتدحت « العادات الصارمة ... لشعب حر ، هو عدو للترف . (٢٤)

ولكن رجال الدين زعموا أن شباب جنيف يفسد فى الكباريهات ، وأن الصلوات العائلية تتقلص ، وأن الناس يثرثرون فى الكنيسة ، وأن بعض المصلين المتواجدين فى المؤخرة يأخذون أنفاساً من «بيباتهم» ليستعينوا بها على ابتلاع العظة . (٢٥) وشكا الوعاظ من عجزهم عن توقيع العقوبات إلا الروحى منها ؛ ومن إغفال تحذيراتهم وإنذاراتهم إغفالا متزايداً .

وقد أبهج فولتير أن يجد العديد من رجال الدين الجنيفيين متقدمين نوعاً ما فى لاهوتهم . فقد أتوا ليستمتعوا بضيافته فى فيللا المباهج ، واعترفوا له سراً

بأنهم لا يحتفظون من عقيدة كلفن القائمة إلا بالقليل . وقد أشار أحدهم ، وهو جاك فيرن ، فى كتابه « التعليم المسيحى » (١٧٥٤) بأن يبنى الدين على العقل حين يخاطب الكبار ، أما « عامة الناس ... فمن المفيد أن تشرح لهم هذه الحقائق ببعض الطرق الشعبية ببراهين تصلح ... لإحداث أثر أكبر فى عقول الجماهير . » [٢٦] وكتب فولتير إلى سيدفيل (١٢ ابريل ١٧٥٦) يقول : « لم تعد جنيف هى جنيف كلفن — بل على العكس ، فهى بلد يحفل بالفلاسفة . و « المسيحية المعقولة » التى نادى منها لوك هى دين كل القساوسة تقريباً ، وعبادة كائن أعلى عبادة مقترنة بنسق أخلاقى ، هى دين كل القضاة تقريباً.[٢٧] وأضاف فولتير إلى تنديده بدور كلفن فى إعدام سرفيتوس العبارة الآتية : فى « مقال عن الأعراف » (١٧٥٦) .

« يبدو أن ترضية تقدم اليوم لرماد سرفيتوس ، فإن رعاة الكنائس البروتستنتية المثقفين . . قد اعتنقوا آراءه (التوحيدية) . » [٢٨] .

أما دالامبر ، فبعد أن زار جنيف وبيت فولتير (١٧٥٦) ، وبعد أن تحدث إلى بعض القساوسة ، وتبادل الرأى مع فولتير ، كتب للمجلد السابع (١٧٥٧) من الموسوعة مقالا عن جنيف أثنى فيه على تحرر إكليروسها فقال :

« إن العددين منهم لا يؤمنون بلاهوت المسيح الذى كان زعيمهم كلفن شديد الغيرة فى الدفاع عنه والذى أمر بسببه بحرق سرفيتوس .. وجهنم التى هى أحد أركان إيماننا لم تعد كذلك عند الكثيرين من قساوسة جنيف . فهم يقولون أن من الإهانة لله أن نتصور أن هذا الكائن الذى يفيض طيبة وعدلا فى طاقته أن يعاقب أخطاءنا بألوان من العذاب الأبدى ... وهم يعتقدون أن هناك عقوبات فى حياة أخرى ، ولكنها مؤقتة . فالمظهر الذى كان من أهم أسباب انفصال البروتستنت عن كنيسة روما . هو اليوم العقاب الوحيد الذى يسلم به كثير منهم للخاطىء بعد موته . وهذه لمسة جديدة تضاف إلى تاريخ تناقضات البشر .

والخلاصة أن الكثير من رعاة جنيف لا يدينون بغير السوسنيانية الخالصة ، ويرفضون كل ما يسمى أسراراً . ويتصورون أن أول مبدأ للدين الحق هو

ألا يطلب إلى الناس الإيمان بشيء يناقض العقل ... وهكذا نرى من الناحية العملية أن الدين اختزل إلى عبادة إله واحد ، على الأقل بين جميع الذين لا ينتمون إلى طبقات العوام . » (٢٩) .

فلما قرأ رجال الدين الجنيفيون هذا المقال انزعجوا كلهم — المحافظون منهم لوجود أمثال هؤلاء المهرطقين على المنابر الكلفنية ، والمتحررون لفضح هرطقاتهم الخاصة على هذا النحو . وقامت لجنة بفحص الرعاة المشبوهين فأنكروا بشدة مزاعم دالامبير ، وأصدرت اللجنة تأكيداً رسمياً جديداً للسنية الكلفنية . (٣٠)

على أن كلفن نفسه كان من بواعث هذه الاستنارة الشائنة التي أطراها دالامبير ، لأن الأكاديمية التي أسسها أصبحت الآن من أروع المؤسسات التعليمية في أوربا . لقد علمت طلابها المذهب الكلفني ، ولكنها لم تغل في تعليمه ، وزودتهم بدراسات ممتازة في الأدب الكلاسيكي ، وأعدت معلمين أكفاء لمدارس جنيف — وتحملت الدولة جميع النفقات . وأعارت مكتبة تضم ٢٥,٠٠٠ مجلد الكتب للجماهير ، وقد وجد دالامبير « الشعب أفضل تعليما منه في أي بلد آخر . » (٣١)

وأدهش كوكس أن يسمع تجاراً يناقشون الأدب والسياسة بذكاء . وفي هذا القرن أسهمت جنيف في العلوم بمنجزات شارل بونيه في الفسيولوجيا وعلم النفس ؛ ومنجزات أوراس دسوسير في الأرصاد الجوية والجيولجيا . أما في الفن فقد أعطت العالم فنانها جان إتين ليوتار ، بكل ما في كلمة العطاء من معنى . ذهب إلى روما بعد أن درس في جنيف وباريس ، فصور هناك البابا كلمنت الثاني عشر وكرادلة كثيرين . ثم إلى الآستانة حيث عاش وعمل خمس سنوات ، ثم إلى فيينا ، وباريس ، وانجلتره ، وهولنده ، حيث كسب قوته من صنع اللوحات الشخصية ، والصور بالباستل ، وبالمينا ، وبالمحفورات والصور على الزجاج . وقد رسم صورة أمينة غاية الأمانة لنفسه في شيخوخته (٣٢) ظهر فيها أقرب من فولتير إلى القردة العليا .

أما فى ميدان الأدب فلم توفق جنيف توفيقاً يذكر . ذلك أن الرقابة اليقظة على المطبوعات خنقت الطموح والأصالة الأدبيين . فحظرت الدراما باعتبارها مباءة للفضائح . وحين أخرج فولتير مسرحيته « زائير » أول مرة فى ١٧٥٥ فى قاعة الاستقبال بفيللا دليس ، تذمر رجال الدين ، ولكنهم تسامحوا فى الجريمة باعتبارها عيباً خاصاً فى ضيف كبير . ولكن حين نظم فولتير فرقة من الممثلين من شباب جنيف ، وعرض سلسلة من التمثليات ، طالب المجمع الكنسى (٣١ يوليو ١٧٥٢) المجلس الكبير بتطبيق مراسيم ١٧٣٢ و ١٧٣٩ التى تحظر كل عروض للمسرحيات عامة كانت أو خاصة ، وأمر الرعاة بمنع رعاياهم من « تمثيل أدوار فى المآسى ببيت السيد دفولتير .» وأعلن فولتير توبته ، ولكنه أخرج المسرحيات فى بيته الشتوى بلوزان . ولعله هو الذى أوعز لدالامبير بأن يضمن المقال المذكور الذى كتبه عن جنيف نداء لرفع هذا الحظر :

ليس السبب استهجان جنيف للمسرحيات فى ذاتها ، بل لأنها (كما يقولون) تخشى الميل إلى التبرج ، والانحلال ، والأباحية التى تنشرها الفرق المسرحية بين الشباب ، ومع ذلك ، أليس فى الإمكان علاج هذه المساوىء بقوانين صارمة مرعية التنفيذ ؟ ... إن الأدب فى هذه الحالة سينهض دون أن يزيد الرذيلة وستجمع جنيف بين حكمة إسبرطة وثقافة أثينا .

ولم يستجب المجمع الكنسى لهذا النداء ، ولكن جان جاك روسو رد عليه (كما سنرى) فى خطابه المشهور « خطاب إلى مسيو دالامبير عن المسرحيات » (١٧٥٨) . وبعد أن اشترى فولتير إقطاعة فيرنيه تخطى الحظر ببناء مسرح فى شاتلين ، على أرض فرنسية ولكن بجوار حدود جنيف . هناك أخرج التمثيليات ، واستقدم لحفلة الافتتاح أكبر ممثلى باريس ، هنرى لوى لوكان . وحظر رعاة جنيف حضور التمثيليات ، ولكن الحفلات وجدت إقبالا شديداً من الجماهير حتى أن قاع المسرح كان يغص بالنظارة قبل بدء البرنامج بساعات فى هذه المناسبات ، حين يكون مقرراً أن يظهر لوكان على المسرح . وكسب المقاتل العجوز آخر الأمر معركته ، ففى ١٧٦٦ ألغى المجلس الكبير حظر جنيف للتمثيليات .

٤ — التاريخ الجديد :

وصف شاهد عيان حضر أداء لوكان دوره فى مسرحية فولتير « سمبراميس » ظهور المؤلف فى المسرح فقال :

كان فولتير نفسه جزءاً لا يستهان به فى العرض ، وهو جالس فى صدر بنوار أول ، فى مواجهة جميع النظارة ، يصفق كمن به مس ، مبدياً استحسانه تارة بعصاه وتارة بعبارات الإعجاب « ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! آه ، رباه ، ماكان أروع تمثيل هذا الجزء ! » ... وبلغ من عجزه عن السيطرة على حماسته أنه ما إن ترك لوكان خشبة المسرح ... حتى جرى خلفه ... ولا يمكن تصور مفارقة أدعى للضحك من هذه ، فقد أشبه فولتير واحداً من شيوخ الكوميديا — بجواربه المطوية على ركبتيه ، والزى الذى يرتديه — زى « أيام زمان الحلوة » وهو لا يتماسك فوق ساقيه المرتعشتين إلا بالتوكؤ على عصاه ، وكل أمارات الشيخوخة مرتسمة على محياه ، فحذاه غائران متغضنان ، وأنفه مستطيل ، وعيناه أوشكتا أن ينطفىء بريقهما » (٣٣) .

وبين المسرحيات والسياسة ، والزوار ، وفلاحة حديقته ، وجد متسعاً من الوقت ليكمل فى فيللته « دليس » عملين كبيرين وينشرهما . وقد ساءت سمعة الأول لما قيل عن خروجه عن اللياقة ، أما الثانى فقد فتح عهداً جديداً فى كتابة التاريخ .

كان يحتفظ بقصيدته « لابوسيل » منذ ١٧٣٠ باعتباها ترفيهاً أدبياً . ويبدو أنه لم يكن فى نيته أن ينشرها ، لأنها لم تكتف بالتهكم بعذراء أورليان (جان دارك) البطلة ، بل هاجمت عقيدة الكنيسة الكاثوليكية ، وجرائمها ، وشعائرها ، وأخبارها . وأضاف الأصدقاء والأعداء إلى مخطوطاتها المتداولة بينهم نتفاً فيها من البذاءة والمرح ماكان حتى فولتير ليكتبه . والآن ، فى ١٧٥٥ ، بعد أن وجد الهدوء والسلام فى جنيف ، ظهرت فى بازل طبعة مسروقة من القصيدة . فحرمها البابا ، وأحرقها برلمان باريس ، وصادرتها شرطة جنيف ، وزج بناشر باريسى فى سفينة الأسرى والعبيد لأنه أعاد إصدارها فى ١٧٥٧ . وقد أنكر فولتير أنه كاتبها ، وأرسل إلى ريشليو ، ومدام بومبادور ، وبعض موظفى الحكومة ، نسخاً من نص مهذب نسبياً ، وفى ١٧٦٢ نشر هذا النص ،

فلم يناكده أحد بسببه . وحاول أن يكفر عن اساءته لجان دارك بتصويرها صورة أكثر انصافاً وجداً فى كتابه « مقال عن الاعراف » (٣٤) .

وقد قصد بهذا المقال أن يكون رائعته الكبرى ، وكان أيضاً — بمعنى من المعانى — أثراً يخلد العشيقة التى استعاد ذكراها . ذلك أنه تقبل الاحتقار الذى صبته مدام دشاتليه على من عرفت من مؤرخين محدثين على أنه تحد له : قالت « ماذا يهمنى ، أنا المرأة الفرنسية التى تسكن ضيعتها هذه أن أعرف أن ايجل خلف هاكون على عرش السويد ، وأن عثمان كان ابن أرطغرل ؟ إننى قرأت بلذة تاريخ اليونان والرومان ، ولقد قدموا لى صوراً رائعة اجتذبتنى ، ولكنى لم أستطع إلى الآن أن أكمل قراءة أى تاريخ مطول لأممنا الحديثة . ولا أكاد أرى فى هذه التواريخ شيئاً غير الخلط والتشويش : فهى حشد من الأحداث الصغيرة التى لا ترابط بينها ولا تسلسل ، وألف معركة لم تحسم شيئاً . . لقد زهدت فى دراسة تغرق العقل دون أن تنيره . (٣٥)

ووافقها فولتير على هذا الرأى ، ولكنه كان يعرف أن هذا ليس إلا التاريخ « كما يكتب » . ولقد أسف على مسخ الأهواء الحاضرة للماضى ، فى هذا المعنى « ليس التاريخ إلا مجموعة حيل ندخلها على الموتى (*) (٣٦) ومع ذلك فإن إغفال التاريخ معناه أن تكرر إلى مالا نهاية أخطاءه ، ومذابحه ، وجرائمه . وهناك ثلاثة مسالك تفضى إلى هذا المنظور الفسيح السمح الذى يسمى الفلسفة : أولها دراسة البشر فى الحياة عن طريق التجربة ، والثانى دراسة الأشياء فى المكان عن طريق العلم ، والثالث دراسة الأحداث فى الزمان عن طريق التاريخ . وحاول فولتير أن يسلك المسلك الثانى بدراسة نيوتن ؛ ثم اتجه الآن إلى الثالث . ومنذ عام ١٧٣٨ وضع هذا المبدأ الجديد « يجب أن يكتب المرء التاريخ مفلسفاً » . (٣٨) وعليه فقد عرض على المركيزة ما يلى :

لو أنك تخيرت من بين هذا القدر الوافر من المادة الغفل التى لم تتشكل ، ما تبنين به صرحاً لاستعمالك الخاص ، ولو أنك رغم اسقاطك كل تفاصيل الحروب ... وكل المفاوضات التافهة التى لم تكن سوى ألوان من الخبث

(*) الظاهر أن فنيلون ، لا فولتير ، هو القائل أن « التاريخ ليس الا خرافة متفقا عليها » . (٣٧) ولكن الاتفاق ليس واضحا .

واللؤم لاغناء فيها ... ولو أنك رغم احتفاظك بتلك التفاصيل التى تصور العادات ، استطعت أن تؤلف من تلك الفوضى صورة عامة واضحة المعالم ؛ ولو أنك اكتشفت فى الأحداث « تاريخ العقل البشرى » أفتعتقدين عندها أنك ضعيت وقتك هباء ؟ » (٣٩) .

وظل عاكفاً على مشروعه هذا على مراحل متقطعة مدى عشرين عاماً يقرأ بنهم ، ويسجل المراجع ، ويجمع الملاحظات ، حتى إذا جاء عام ١٧٣٩ ، وضع لمدام دشاتليه « مجملا للتاريخ العام » ؛ وفى ١٧٤٥ — ٤٦ طبعت أجزاء منه فى صحيفة « لامركير دفرانس » . وفى ١٧٥٠ أصدر « تاريخ الحروب الصليبية » ؛ وفى ١٧٥٣ ، فى لاهاى ، ظهر « المجمل » فى مجلدين ، وفى ١٧٥٤ فى ثلاثة ، وأخيراً نشر النص الكامل بجنيف فى ١٧٥٦ فى سبعة مجلدات بعنوان « مقال فى التاريخ العام » ، وكان يشمل « عصر لويس الرابع عشر » وبعض فصول تمهيدية عن الحضارات الشرقية . وفى ١٧٦٢ أضاف « خلاصة لعصر لويس الرابع عشر » وثبتت طبعة ١٧٦٩ العنوان النهائى للكتاب كالآتى : « مقال فى أعراف الأمم وروحها منذ شرلمان حتى أيامنا هذه » وكلمة الأعراف moeurs لم تكن تعنى العادات والأخلاق فحسب ، بل التقاليد والأفكار والمعتقدات والقوانين . ولم يغط فولتير دائماً كل هذه المواضيع ، ولا دون تاريخ الثقافة ، أو العلم ، أو الفلسفة ، أو الفن ؛ ولكن كتابه كان فى مجموعه تناولا جزئياً لتاريخ الحضارة من أقدم العصور حتى زمانه . والأجزاء التى عالجت تاريخ المشرق مقدمات موجزة ، أما القصة الأكمل فتبدأ بشرلمان ، حيث توقف كتاب بوسويه « حديث فى التاريخ العالمى » (١٦٧٩) . كتب فولتير يقول « أريد أن أعرف ما هى الخطوات التى انتقل بها البشر من الهمجية إلى المدنية » — وهو يعنى الانتقال من العصور الوسطى إلى الأزمنة الحديثة » . (٤٠)

وقد أثنى على بوسويه لمحاولته كتابة « تاريخ عالمى » . ولكنه اعترض على تصور هذا التاريخ تاريخاً لليهود والمسحيين ، ولليونان والرومان

فى علاقتهم بالمسيحية على الأخص . وهاجم إهمال الأسقف بوسويه للصين والهند ، وفكرته عن العرب ،أنهم مجرد زنادقة همج . وأقر بالجهد الفلسفى الذى بذله سلفه فى البحث عن موضوع موحد أو عملية رابطة فى التاريخ ، ولكنه لم يستطيع موافقته على أن التاريخ يمكن تفسيره تدبيراً تسيره العناية الإلهية ، أو برؤية يد الله فى كل حدث كبير . فلقد رأى التاريخ — بدلا من هذا — المسيرة البطيئة المترددة التى خطا بها الإنسان ، بفضل الأسباب الطبيعية والجهد البشرى ، من الجهل إلى المعرفة ، ومن المعجزات إلى العلم ، ومن الخرافة إلى العقل . ولم يستطيع رؤية أى خطة إلهية فى دوامة الأحداث . وقد جعل من الدين المنظم شخصية « الشرير » فى قصته ، ربما انتقاضاً على بوسويه لأنه بدا له على العموم حليفاً للظلامية ، ميالا إلى الطغيان ، مثيراً للحرب . وهكذا دفع فولتير حرصه على استنكار التعصب والاضطهاد إلى الغلو فى تحميل قصته من جانب ، غلو بوسويه فى تحميلها من الجانب الآخر .

وفى منظوره العالمى الجديد الذى أتاحه له تقدم الجغرافيا بفضل تقارير الرواد ، والمبعوثين الدينيين ، والتجار ، والرحالة ، اتخذت أوربا مكاناً أكثر تواضعاً فى لوحة التاريخ الواسعة . فقد أعجب فولتير بتلك « المجموعة من المشاهدات الفلكية التى تجمعت خلال ألف وتسعمائة سنة متعاقبة فى بابل، والتى نقلها الاسكندر إلى اليونان » (٤١) وخلص إلى أنه لابد أن دجلة والفرات قد غنيا بحضارة عريضة راقية ، لا تظفر عادة بأكثر من جملة أو جملتين فى تواريخ كتاريخ بروسويه . وتأثر أكثر بعراقة الحضارة فى الصين وانتشارها وتفوقها ؛ وذهب إلى أن هذا « يرفع الصينيين فوق كل أمم الأرض » . ومع ذلك فإن هذه الأمة وأمة الهند، أقدم الدول الحية ... اللتين اخترعتا كل الآداب والفنون تقريباً قبل أن نعرف واحداً منها ، كان نصيبها الإغفال حتى يومنا هذا فى تواريخنا التى نزعم أنها عالمية . » (٤٢) وقد طاب لهذا المقاتل عدو المسيحية أن يجد ويقدم للقراء الكثير من الحضارات العظيمة التى سبقت المسيحية بزمن طويل ، والتى لم يكن لها أى علم بالكتاب المقدس ، ومع ذلك أنجبت الفنانين ، والشعراء ، والحكماء ، والقديسين ،

قبل مولد المسيح بأجيال كثيرة . وقد أبهج عدو السامية المرابى ، الحانق ، أن يختزل كثيراً ذلك الدور الذى قامت به يهوذا فى التاريخ .

على أنه بذل بعض الجهود لينصف المسيحيين . فليس كل البابوات فى صفحاته أشراراً ، ولا كل الرهبان طفيليين . ولم يضن على رجل كالبابا اسكندر الثالث بكلمة طيبة ، فقد « ألغى العبودية الإقطاعية .... ورد حقوق الشعب ، وعاقب لؤم الرءوس المتوجة » . (٤٣) وأعجب بالشجاعة الهائلة « التى اتصف بها بوليوس الثانى ، وعظمـــة آرائه » (٤٤) وتعاطف مع جهود البابوية لإقامة سلطة أخلاقية تكبح حروب الدول ومظالم الملوك . واعترف بأن أساقفة الكنيسة ، بعد سقوط الدول الرومانية الغربية ، كانوا أكفأ الحكام فى ذلك العصر الذى كان يضم أوصاله بعدما أصابها من تفكك. ثم :

« فى تلك العصور الهمجية ، والناس غاية فى البؤس ، كان من التعزيات الكبرى أن يجد المرء فى الديورة ملاذاً آمناً من الظلم والطغيان . (٤٥) .... ولا نكران فى أن الدير كان يضم فضائل عظمى ، فلم يكد يوجد دير لم يحو أفراداً جديرين بالاعجاب يشرفون الطبيعة البشرية . وقد طاب للكثيرين جداً من الكتاب أن ينبشوا عن المفاسد والرذائل التى لوثت أحياناً بيوت التقوى والصلاح هذه » . (٤٦)

ولكن فولتير ، الذى تورط مع الموسوعيين المتحفزين للمعركة فى حرب مع الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، أكد بوجه عام على أخطاء المسيحية فى التاريخ ، وهون من اضطهاد روما للمسيحيين ، وسبق جيبون إلى اعتبار هذا الاضطهاد أقل تكراراً وفتكاً من اضطهاد الكنيسة للمهرطقين . ثم سبق جيبون أيضاً إلى القول بأن الدين الجديد أضعف الدولة الرومانية . وذهب إلى أن القساوسة اغتصبوا السلطان ببث التعاليم السخيفة بين الجهال والسذج ، وباستعمال قوة الطقوس المنومة لإماتة العقل وتقوية هذه الأوهام . ورمى البابوات بأنهم بسطوا نفوذهم وجمعوا الثروات باستعمال وثائق مثل « هبة قسطنطين » التى يسلم الناس عموماً الآن بأنها زائفة وصرح بأن محكمة التفتيش الاسبانية ، ومذبحة الأليجنس المهرطقين ، هما أحط ما وعى التاريخ من أحداث .

وبدت له العصور الوسطى فى العالم المسيحى فاصلا مقفراً بين جوليان ورابليه، ولكنه كان من أول من اعترفوا بدين الفكر الأوربى لعلم العرب وطبهم وفلسفتهم . وأشاد بلويس التاسع مثلا أعلى للملك المسيحى ، ولكنه لم ير نبلا فى شرلمان ، ولا فهماً فى الفلسفة المدرسية (الكلامية) ، ولا عظمة فى الكتدرائيات القوطية التى أنكرها لأنها « خليط غريب من الجلافة والتخريم»

ولم يكن متوقعاً من روحه المطاردة أن تقدر دور العقيدة والكهانة المسيحيتين فى تشكيل الخلق والفضائل وحفظ النظام والسلام فى المجتمعات ، وتشجيع كل الآداب والفنون تقريباً ، وإلهام الموسيقى الرائعة ، وتجميل حياة الفقراء بالمراسم والأعياد والتراتيل والأمل . ولا عجب ، فلقد كان إنساناً يخوض حرباً ، ولا يستطيع إنسان أن يقاتل ما لم يتعلم الكراهية . والغالب وحده هو الذى يستطيع تقدير عدوه حق قدره ؟

أكان مصيباً فى وقائعه ؟ عموماً ، ولكنه ارتكب أخطاء بالطبع ؟ وقد نشر الأبيه نونوت مجلدين بعنوان « أغلاط فولتير » ، وأضاف بعضاً من أغلاطه هو . (٤٧) ولكن روبرتسن ، وهو مؤرخ كبير ، أعجب بدقة فولتير عموماً فى مثل هذا الميدان الشاسع . (٤٨) ولما كان فولتير يغطى هذه المواضع الكثيرة فى هذه الأقطار الكثيرة خلال قرون كثيرة ، فهو لم يدع أنه تقيد بالوثائق الأصلية أو المصادر المعاصرة ، ولكنه استعمل مراجعه الثانوية بتمييز ووزن حكيم للشواهد . ورسم لنفسه قاعدة هى التشكك فى أى شهادة تناقض « الحسن المشترك » أو الخبرة العامة للنوع الإنسانى . ولا ريب فى أنه كان معترفاً فى أيامنا هذه بأن غرائب عصر ما قد تقبل فى العصر الذى يليه على أنها أمور عادية ، ولكنه وضع هذا المبدأ الهادى ، وهو « أن عدم التصديق هو الأساس لكل أنواع المعرفة » . (٤٩) وهكذا سبق بارتولد نيبور فى رفضه الفصول الأولى لليڤى لأنها من قبيل الأساطير ، وسخر من قصة رومولوس ، وريموس ، والذئبة التى كانت لهما الأم الرءوم ، وسخف مزاعم ليڤى ، واتهم تاسيتوس بالمبالغات الانتقامية فى وصفه لرذائل طبباريوس ، وكلوديوس ، ونيرون ، وكاليجولا ؛ وارتاب فى هيرودوت وسوتنيوس لأنهما مروجان للشائعات والأقاويل ، وذهب إلى أن فى پلوتارخ من الولع بالنوادر مالا يجعله موضع الثقة الكاملة ، ولكنه قبل تيوسيديدس ، وزينوفون ،

ويوليبيوس ، مؤرخين جديرين بالثقة . وتشكك فى الأخبار التى كتبها الرهبان ، ولكنه أثنى على دوكانج ونللمون « المدقق » ومابيون « العميق » ورفض أن يواصل التقليد القديم ، تقليد الخطب الخيالية ، أو التقليد الحديث ، تقليد « اللوحات » التاريخية . وأنزل مكان الفرد فى المجرى العام للأفكار والأحداث ، وكان الأبطال الوحيدون الذين عبدهم هم أبطال العقل .

وقد ألمع فولتير فى « المقال » وفى غيره إلى فلسفته فى التاريخ دون أن يصوغها . وكتب « فلسفة للتاريخ » وقدم بها لطبعة من « المقال » فى ١٧٦٥ . وكان ينفر من « مذاهب » الفكر ، ومن كل المحاولات لاختزال الكون فى صيغة أو قانون ، ويعرف أن الحقائق أقسمت أن تكون خصماً أبدياً للتعميمات . ولعله أحس أن أى فلسفة للتاريخ ينبغى أن تلى سرد الأحداث وتنبع منه ، لا أن تسبقه وتقرره . على أن استنتاجات عريضة انبعثت من روايته للتاريخ : فالحضارة سبقت « آدم » و « الخليقة » بآلاف السنين ؛ والطبيعة البشرية فى جوهرها واحد فى كل زمان ومكان ، ولكن شتى العادات والتقاليد عدلتها تعديلا منوعاً ، وأن المناخ والحكومة ، والدين ، هى العوامل الأساسية التى تقرر هذه الاختلافات ، وأن دولة العادات والتقاليد أوسع كثيراً من دولة الطبيعة » [٥٠] والاتفاق والمصادفة (فى نطاق السلطان الشامل للقوانين الطبيعية (يلعبان دوراً هاماً فى توليد الأحداث ، والتاريخ لا تصنعه عبقرية الأفراد بقدر ما تصنعه الأفعال الغريزية التى تؤثر بها الجماهير البشرية فى بيئتها ؛ وهكذا تنتج ، جزءاً فجزءاً ، العادات ، والأخلاق ، والاقتصاديات ، والقوانين ، والعلوم ، والفنون والآداب التى تصنع حضارة وتبعث روح العصر . « إن هدفى الرئيسى هو دائماً ملاحظة روح العصر ، لأنه هو الذى يوجه أحداث العالم الكبرى . » [٥١]

والتاريخ فى جملته ، كما رآه فولتير فى « تلخيصه » ، قصة مرة محزنة (كما يكتب عموماً) .

« لقد اجتزت الآن المشهد الضخم للثورات التى عرفها العالم منذ عهد شارلمان ؛ فإلام كان اتجاهها ؟ إلى الخراب ، وخسارة ملايين الأنفس ! فكل حدث كبير كان نكبة كبرى . ولم يحفظ لنا التاريخ وصفاً لعصور السلم

والطمأنينة ؛ فهو لا يروى غير الغارات المدمرة والكوارث ... والتاريخ كله بإيجاز ، ليس إلا سلسلة طويلة من أعمال القسوة العقيمة ... مجموعة من الجرائم ، والحماقات ، والنكبات ، التقينا وسطها بين الحين والحين ببعض الفضائل ، وبعض الأويقات السعيدة ، شأننا حين نرى أحياناً أكواخاً مبعثرة فى صحراء مقفرة ... وبما أن الطبيعة ألقت فى قلب الإنسان الأنانية والكبرياء وجميع الأهواء ، فلا عجب إذن ... أن نلتقى بسلسلة من الجرائم والكوارث لا تكاد تنقطع . » (٥٢)

وهذه صورة مقبضة جداً وكأن صاحبها رسمها فيما بين أيامه النكدة فى برلين ، أو وسط ضروب الإهانة والقهر التى لقيها فى فرنكفورت . ولعل الصورة كانت تصبح أكثر إشراقاً لو أن فولتير أنفق صفحات أكثر على رواية تاريخ الأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والفن . أما والصورة قاتمة إلى هذا الحد ، فإنا نتساءل : ما باله قد جشم نفسه كل هذه المشقة ليرسمها بهذا الاسهاب الشديد ؟ ولعله كان يجيب : لكى يصدم القارىء حتى يتنبه ضميره وفكره ، ويهز الحكومات حتى تعيد صياغة التعليم والتشريع لتكون ناساً أفضل . صحيح أننا لا نستطيع أن نغير الطبيعة البشرية ، ولكنا نستطيع أن نعدل تصرفاتها بتقاليد وعادات أصح وشرائع أحكم . وإذا كانت الأفكار قد غيرت العالم ، فلم لا تصنع الأفكار الأفضل عالماً أفضل ؟ وهكذا خفف فولتير فى النهاية من تشاؤمه بالأمل فى نشر التعقل عاملا صابراً من عوامل النهوض بالبشر .

وسرعان ما نقد الناقدون ما فى « مقال الأعراف » ؛ من عيوب . فلم يقتصر الأمر على نونوت ؛ بل إن لارشير ، وجينيه ، وكثيرين غيرهم نددوا بأخطاء الحقائق التى وردت فيه ؛ ولم يعسر على اليسوعيين كشف التحامل الذى شوهه . واتفق معهم مونتسكيو فى هذه الناحية فقال « إن فولتير يشبه الرهبان الذين لا يكتبون من أجل الموضوع الذى يعالجونه ، بل لمجد طائفتهم ؛ إنه يكتب من أجل ديره . » (٥٣) ورد فولتير على نقاده بأنه أكد على أخطاء المسيحية لأن غيره ما زالوا يدافعون عنها ؛ ثم استشهد

بأقوال مؤلفين معاصرين امتدحوا الحروب التى شنت على الالبيجنس ، وإعدام هس ، بل مذبحة القديس برتلميو ، فالعالم يحتاج ولا ريب إلى تاريخ يدمغ هذه الأفعال بالأجرام ضد الإنسانية والفضيلة . (٥٤) — وربما أخطأ فولتير فى فهم وظيفة المؤرخ رغم كل فكرته المنيرة عن الكيفية التى ينبغى أن يكتب بها التاريخ ، فلقد جلس فى مجلس القضاء يحاكم كل شخص وكل حادث ، ويصدر الأحكام كأنه « لجنة أمن عام » التزمت بحماية الثورة الفكرية ودفعها قدماً . وقد حكم على الناس لا بلغة زمانهم الفاسد ومعرفتهم المحدودة ، بل فى ضوء المعرفة الأوسع التى توافرت منذ أن ماتوا . وقد ألف فولتير « المقال » فى أوقات متفرقة على مدى عشرين عاماً ، وسط الكثير من المغامرات والشدائد التى شتتت انتباهه ، لذلك افتقر هذا الكتاب إلى اتصال الرواية ووحدة الشكل ، ولم يدمج أجزاءه تماماً فى كل متماسك .

ولكن محاسن الكتاب لا تحصى . فرقعة معرفته هائلة ، وهى شهادة على ما بذله فيه مؤلفه من البحث الجاد المثابر . وأسلوبه المشرق ، الذى أثقلته الفلسفة وخففته الفكاهة ، رفعه إلى مرتبة دونها مرتبة أكثر كتب التاريخ فيما بين كاسيتوس وجيبون . وقد لطفت روحه العامة من تحيزه ، وما زال الكتاب ينبض بمحبة الحرية ، والتسامح ، والعدالة ، والعقل . فى هذا أيضاً أصبحت كتابة التاريخ فناً ، بعد الكثير جداً من كتب الأخبار التى اتسمت بالغفلة وافتقرت إلى الحياة . وفى جيل واحد أحال ثلاثة كتب تاريخ أخر أحداث الماضى أدباً وفلسفة : « تاريخ انجلتره » لهيوم ، و « تاريخ حكم الامبراطور شارل الخامس » لروبرتسن ، و « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » لجيبون — وكلها مدينة لروح فولتير ، ومن بعض الوجوه للمثال الذى ضربه . وقد نوه ميشليه بالكتاب فقال فى عرفان بالجميل أنه . « التاريخ » الذى صنع فن كتابة التاريخ كله ، والذى أنجبنا كلنا ، نقاداً ورواة على السواء . (٥٥) وليت شعرى ما الذى نفعله نحن هنا إلا السير على درب فولتير ؟

عندما وضعت حرب السنين السبع فرنسا فى صف أعداء فردريك ، انبعث حب فولتير الكامن لوطنه من جديد ، ربما ممزوجاً بذكريات قديمة

لفرانكفورت وارتياب جديد فى جنيف . فبعد مقال دالامبير ، وتراجع إكليروس جينف عن الآراء الجريئة التى ربطهم بها المقال ، أحس فولتير بأن الخطر عليه فى سويسرة لا يقل عنه فى فرنسا . فمتى يستطيع العودة إلى وطنه ؟

وحالفه الحظ هذه المرة . ذلك أن الدوق دشوازيل الذى أمتعته قراءة كتب هذا الطريد المنفى عن بلده تقلد وزارة الخارجية فى ١٧٥٨ ، وبلغت مدام دبومبادور ذروة نفوذها رغم اضمحلال جسدها ، وكانت قد عفت عن حماقات فولتير ؛ واستطاعت الحكومة الفرنسية الآن ، والملك يلهو وسط حريمه ، أن تغضى عن عودة الزنديق الرهيب إلى فرنسا . ففى أكتوبر ١٧٥٨ ، انتقل ثلاثة أميال ونصفاً خارج سويسرة ، وأصبح سيد فيرنيه . وكان فى الرابعة والستين ، لم يزل قريباً من الموت كما قال من قبل ، ولكنه اختصم أقوى دوله فى أوربا فى أخطر صراعات القرن .

* * *